الفصل الخامس

يعقـــوب عند البئر

سار يعقوب فى طريقه منشرح الصدر لرؤيته الملائكة فى حلمـه ؛ ولما وعده به الرب من حمايته وحماية قومه ، حتى وصل الى أرض أبناء المشرق• هناك تقابل مع أقربائه ، وهناك وجد زوجاته ، وهناك أصبح يمتلك قطعان الماشية بعد أن كان فقيرا مشردا لا مأوى له • على أن الكاتب لم يحدد بدقة المكان الذى جرت فيه تلك الأحداث التى تعـد حاسمة فى تاريخ أبنائه من بعده • فقد تعمد المؤرخ ، أو بالأحـرى الفنان الأديب أن يترك الطبيعة الجغرافية لهذا المكان باهتة ، بينمـــا صور معايشة يعقوب لحبه الأول فى منفاه فى ألوان حية للغاية • وقـد سطع هذا المنظر بتأثير قلمه فى عمق ، تماما كما سطع بريشة رفائيل ، ذلك الرسام الذى أكسب الحادث خلودا ثانيا بما أودع من تصويره فى متاحف الفاتيكان • ولم يصور رفائيل فى صورته حياة الحضارة ، وانما صور حياة الرعى ، ذلك أن الحبيبين لم يتقابلا فى زحمـة الأســـواق وضوضائها ، بل تقابلا فى هدوء المراعى الخضراء ووداعتها ، تلك التى كانت تقع فى تخوم الصحراء ، وقد انتشر فوق رأسيهما قطاع كبير من السماء ، ومن حولهما تستلقى قطعان الأغنام ، وهما ينتظران فى صبر حتى يحين دورها فى الورود • أما كاتب القصة من ناحية أخرى ، فقد حدد الساعة التى تقابل فيها الحبيبان ، ذلك لأنه ذكر أن الشـــمس الحارقة لم تكن قد توسطت السماء بعد ، وهو يدعنا نتنسم نسيم صباح يوم من أيام الصيف قبل أن تشع الحرارة القائظة فى ظهيـرة بـــلاد الجنوب • وهل يمكن أن يتقابل عاشقان شابان فى مكان وزمان أنسب

من هذا الزمان وذاك المكان ؟ • لقد تحولت طبيعة يعقوب الجشعة بسحر هذا الوقت وذاك المكان الى شيء أشبه بالرقة ، فنسى فى الحال حسابات المكسب المكبوح ورضخ لانفعالات الحب ، بل انفعال الفارس العاشق . فلقد هرول الى البئر عند رؤية الفتاة الجميلة قادمة مع قطيعها ، وأزاح الصخرة التى كانت تسد البئر وسقى لها خرافها ، ثم قبل وجه ابنة خاله الساحر وبكى • فهل بكى يعقوب لتذكره الحلم الذى رأى فيه الملائكة فى « بيت ايل » ورأى أن الحلم قد تحقق فى حلم حبه الشاب ؟ هذا ما لا نستطيع أن نقطع به • وإنما الشيء المؤكد أن المحتال الأثانى قد تحول فيما يبدو لوقت قصير الى محب عاشق • وقد كان هذا الوقت الشاعرى الرومانسى الوحيد فى حياة يعقوب المادية بل الخسيسة •

وقد احتار شارحو سفر التكوين بعض الشيء فى تفسير اجهاش يعقوب بالبكاء عندما قبل ابنة خاله الجميلة راحيل • ومن ثم فقد افترضوا أنه فعل ذلك تعبيرا عن سعادته بخاتمة رحلته السعيدة • وهم يوضحون هذه الطريقة فى التعبير عن المشاعر السعيدة بأحاسيس الشعوب الشرقية العميقة ، أو بعدم قدرتهم على ضبط مشاعرهم • ولكن يبدو أن الشراح قد فشلوا فى ملاحظة أن البكاء عند غير قليل من الشعوب ، يعد طريقة تقليدية لتحية الغرباء أو الأصدقاء بخاصة هؤلاء الذين اجتمع شملهم بهم بعد غيبة طويلة ، وأن هذه التحية على هذا النحو هى فى الغالب تحية تقليدية لا تفوق فى العاطفة المصحوبة بها عادة السلام بالأيدى أو عن طريق رفع القبعة . ومن شأن الأمثلة التالية أن توضح رأينا هذا •

فهناك فى العهد القديم نفسه أمثلة أخرى لتحية الأقرباء أو الأصدقاء على هذا النحو • فعندما كشف يوسف عن نفسه لأخوته فى مصر ، قبلهم وأجهش فى البكاء بصوت مرتفع الى درجة أن سمعه المصريون الذين يسكنون فى الجانب الآخر من البيت • ولكن يبدو أن

بكاء يوسف فى هذه المناسبة كان تعبيرا طبيعيا عن مشاعره وليس مجرد عمل تقليدى • فمن المؤكد أنه اندفع فى البكاء متأثرا برؤية أخيه بنيامين لأول مرة بعد غيبة طويلة ، اذ لم يتمالك يوسف نفسه عند رؤيته أحب أخوته اليه الذى كان قد فقده زمنا طويلا ، فترك الحجرة التى كان الناس قد تجمعوا فيها ، واندفع مسرعا الى حجرته وأخذ يبكى وحده حتى استطاع أن يتمالك نفسه ويكف عن البكاء ، ثم غسل عينيه المحمرتين ، ومسح الدموع عن خديه ، وعاد الى أخوته بوجه صارم • ومرة أخرى بكى يوسف عندما تقابل مع أبيه الهرم فى « جاسان » ، فقد مال على رقبة أبيه وأخذ يبكى وقتا طيبا (١) • وفى هذه المرة كذلك كانت دموع يوسف تنبع من قلبه عندما وقع بصره على الرأس الأشيب وقد نكس أمامه ، وعندما تذكر حب أبيه له فى أيام صباه • وعندما تقابل الصديقان العزيزان داود ويوناتان فى ساعة حالكة لآخر مرة ، قبل أحدهما الآخر وبكيا معا فى صوت واحد حتى بالغ داود فى بكائه ، اذ كانا قدشعر بأنهما لن يرى أحدهما الاخر بعد ذلك • ونحن نعتقد هنا كذلك • أن البكاء لم يكن مصطنعا • ومرة أخرى نقرأ فى سفر طوبيا كيف أن طوبيا عندما وفد غريبا على بيت قريبه « رعوئيل » فى « اكباتان » وكشف عن شخصه لضيفه « قفز رعوئيل وقبله وبكى » • وربما كان البكاء فى هذا الموقف كذلك نتيجة المفاجأة السارة أكثر من كونه امتثالا لعادة اجتماعية •

ومهما تكن دوافع البكاء فى هذه الأمثلة عند العبريين فانه من المؤكد أن الإجهاش فى البكاء عند شعوب أخرى فى ظروف اجتماع الناس بعضهم ببعض أو افتراقهم عن بعضهم بعضا ، تلك الشعوب

---

(١) « فأرسل يهوذا امامه الى يوسف ليرى الطريق امامه الى جاسان . ثم جاءوا الى أرض جاسان . فشد يوسف مركبته وصعد لاستقبال اسرائيل أبيه الى جاسان . ولما ظهر له وقع على عنقه وبكى على عنقه زمانا » . (سفر التكوين ، الاصحاح السادس والأربعون ٢٨ ، ٢٩) .

التى كانت تعيش فى مستوى حضارى أدنى من مستوى العبريين ، لم تكن فى كثير أو قليل سوى تقليد شكلى لسلوك فرضه المجتمع المهذب . ومن بين هذه الشعوب التى لا يمكن أن تدعى محافظتها على آداب السلوك ، وهى تعبر فى الوقت نفسه فى عنف عن عاطفتها بالبكاء ، سواء كان ذلك التعبير صادقا أم مصطنعا ، « الماوريون » سكان « نيوزيلنده ». فقد روى عنهم « أن مزاجهم العاطفى يتضح أكثر ما يكون عند رحيل الأصدقاء بعضم عن بعض أو عند اجتماع شملهم . فاذا خرج صديق فى رحلة قصيرة الى « بورت جاكسون » أو الى « فان ديمانز لاند » ، فانهم يقومون بعرض كبير للتعبير عن مشاعرهم السطحية . ويبدأ هذا العرض بأن ينظر المودعون الى بعضهم البعض نظرة غامزة ، ثم ينشجون ويصيحون صيحة رقيقة ، ثم تأخذ الدموع تترقرق فى أعينهم . وتتجهم وجوههم ، ويدلفون الى جانب الشخص الراحل ويتعلقون برقبته . وعند ذاك يصرخون دفعة واحدة ويمسحون وجهه وذراعيه بحجر القداحة ، ويصرخون بطريقة لا تحتمل ويظلون يغمرون هذا الشخص بالدموع والقبلات ويلوثونه بالدم حتى يكاد يختنق ويتوق الى الهرب منهم . وعند عودة الأصدقاء أو عند القيام بزيارتهم لهم على بعد ، فإنهم يقومون بهذه الأفعال نفسها ولكن بغير نظام . ومن العسير ألا تنسكب الدموع من عينيك عند رؤية هذا المنظر المحزن وعند سماع العويل الصاخب والأصوات المتنافرة التى يطلقونها . وفى هذا كله مبالغة فى اظهار العواطف ، ذلك أنه فى وسع هؤلاء أن يظلوا واقفين أو جالسين على بعد من الشخص الذى يتحتم عليهم أن يبكوا على فراقه ، حتى يتهيأون لهذه اللحظة ويتدبرون أمرها ، التى يندفعون فيها نحوه فى شغف ظاهرى ويمسكون بفريستهم ، (فهذا هو أفضل تعبير عن ذلك) ويعملون على انهاك أنفسهم ونفاد صبره . والشىء الذى يستحق التنويه به فى هذه العملية ، هو أنه بالرغم من مقدرتهم على البكاء فى كل المناسبات ، فانهم يكفون عن البكاء كلية عندما يطلب منهم ذلك ، أو عندما يأخذ منهم التعب مبلغه . لقد سبق لى أن

استمتعت ذات مرة برؤية هذا المنظر فى قرية « كايكوهى » التى تبعد عن « وايمانى » بحوالى عشرة أميال • فقد كان قد عاد الى هذه القرية ست من الأصدقاء والأقرباء من زيارة « للتاميس » بعد غيبة ستة شهور • وبينما كان الجميع منصرفين الى البكاء التقليـــدى ، جففت امرأتان دموعهما فجأة اثر اشارة أشارت بها احدهما للاخرى ، وانتهيتا من ابداء عواطفهما . وقالتا للجمع المحتشد فى سذاجة بالغة : « اننـــا لم نفرغ من العويل بعد • سنذهب لنضع ــ الطعام فى الفرن ونطهيه ونعد المسلال لنضعه فيها ، ثم نعود لنستأنف بكاءنا • فإذا لم نتمكن من العودة بعد حين فسنعود فى المساء لنواصل بكاءنا » • ثم ختمتـــا عبارتهما المعولة بأن توجهتا للحاضرين وقالتا : « أليس الأمر كذلك ؟ أليس الأمر كذلك ؟ » • وفى أعقاب هذا الحديث معهما حول نفاقهـــم هذا بخاصة وأنهم يعلمون أنهم لا يكترثون كثيرا ، عدم اكتراثهم بثمن ثمرة البطاطس ، بما اذا كانوا سيرون هؤلاء الذين يبكون من أجلهم • وعند ذاك أجابتا قائلتين : « ها ! إن حب النيوزيلندى كله خارج قلبه . انه فى عينيه وفى فمه » • وكثيرا ما وقـــع القائد البحـــار « ب • ديللون » فريسة لهذه المظاهرات العاطفية الصاخبة • وقد أخبرنـــا كيف أنه كان يجهد نفسه حتى يستطيع أن يتجاوب معهم بطـريقة مناسبة لهم . فقال « إن من عادة النيوزيلانديين أنه اذا اجتمع شمل الأقرباء أو الأصدقاء بعد غيبة طويلة فإنهم يذرفون الدمع ويلصقون أنوفهم بعضها ببعض • وكثيرا ما قمت معهم بهذه الأحتفالات بدافع المجاملة • ولو أننى كنت أهمل أداء هذه الأفعـــال معهم ، لاتهمت فى صداقتى لهم ، ولنظروا الى نظرة أفضل من نظرتهم للبربرى بقليل ، وذلك لمخالفتى لقواعد آداب النيوزيلنديين • على أن قلبى الجامـــد لم يكن يستجيب فى كل المناسبات للبكاء ، اذ كان يختلف عن طبيعـــة قلوبهم • ولكن كان يكفى لاصطناع الحب الحقيقى أن أضع منديلى على عينى لبعض الوقت وأن أعول بطريقتهم • ولم يكن هؤلاء القـــوم يحاسبون الأوربى الغريب على عدم مشاركتهم هذا الاحتفال ، أمـــا

بالنسبة لى ، فكان يتحتم على آداؤها ، اذ كنت بالنسبة لهم ،«ثونجاتا موري » أى مواطن نيوزيلندى كما كان يروق لهم أن يسمونى » • على أننا نقرأ مرة أخرى أن « اظهار هذه العواطف كان يميز المقابلات النيوزيلندية ، بينما كانوا يقومون بوداع أحبتهم دون الاستعانة بهذه المجاملات الظاهرية • فاذا تقابل الرجال والنساء بعد غيبة طويلة فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ويعولون ويذرفون الدمع ، وفى الوقت نفسه يحكون لبعضهم بعضا عن أهم الأحداث التى حدثت لهم منذ غيابهم عن بعضهم البعض • ذلك لأنهم لا يعرفون الحزن الصامت • فاذا حدث لقاء بين أقرباء من الدرجة الأولى بعد غيبة طويلة ، فإنهم يستمرون فى لصق أنوفهم بعضها ببعض وفى العويل مدة نصف ساعة • أما اذا حدث لقاء عرضى بين طرفين فإنهم يلصقون أنوفهم بعضها ببعض ثم ينصرفون على التو • وتسمى هذه التحية عندهم « هونجى » ومعناها « الشم » • ومن شأن هذه التحية ، كما هو الحال فى عادة أكل الملح عند الشرقيين ، أن تمحو العداوة بين الأعداء • ولاتتلاقى الشفاه فى أثناء تأدية هذه التحية ، اذ أنهم كانوا يمتنعون عن تقبيل بعضهم البعض » •

واذا تقابل الأقرباء بين السكان الأصليين فى جزر أندمان « بعد غيبة عدة أسابيع أو شهور ، فإنهم يعبرون عن سعادتهم بهذا اللقاء بأن يجلسوا متقابلين وقد التفت أذرعهم حول أعناق أقربائهم ، ثم يبكون ويعولون بطريقة تجعل الشخص الغريب يتصور أن حادثا مؤسفا قد حدث لهم • والواقع أنه ليس هناك أدنى فرق بين فرحهم بلقاء حبيب وحزنهم على فقد عزيز • وفى العادة تبدأ النساء بالعويل ، ثم تصاحبهن الرجال على التو • ويظل ثلاثة أو أربعة منهم يبكون فى نغمة واحدة ، حتى يكفوا عن البكاء عندما يشعرون بالإرهاق » • وعند شعب « مونجيلى تاهيل » الذى يسكن حى « بيلاسبورى » فى الهند ، « لا تختلف عن ذلك تقاليد استقبال الأقرباء الذين كانوا متغيبين فترة طويلة ، فجماعة النساء فى كل حالة يجلسن ويبكين بصوت عال • أما

اذا عاد الابن الى بيت والديه بعد غياب عدة شهور ، فإن أول ما يفعله أن يجلس عند قدمى والديه ويلمسها • ثم يأتى اخوته وهو يجلس على هذا النحو ، وكل يأتى بدوره ويضع يديه على كتفيه ويبكى بصوت عال ؛ ثم يحكى له فى نغمة معولة حدثا مما حدث فى أثناء غيابه » • ويتطلب آداب السلوك عند « الشاوهانيين » الذين يسكنون الأقاليم الوسطى فى الهند ، أن « تبكى النساء اذا تقابلن مع أقرباء لهن جاءوا لزيارتهن من مكان بعيد • فاذا تقابلت امرأتان فى هذه الحالة ، فإنهما تبكيان معا بعد أن تضع كل منهما رأسها على كتف الأخرى ، ويديها الى جانبها ، وبين أثناء البكاء تغير كل منهما وضع رأسها مرتين أو ثلاثا ؛ وتصيح بنوع قرابتها لها إن كانت أما لها أو أخا الى غير ذلك • أما اذا توفى فرد فى العائلة ، فإن النساء يصرخن قائلات « آه يا أمى • أو آه يا أختى • أو آه يا أبى •• لماذا لم أمت أنا الأنسان السيىء الحظ بدلا منك ؟ » فاذا بكت امرأة بمصاحبة رجل فإنها تمسك بجانبيه وتضع رأسها على صدره • أما الرجل فيصيح بها بين الحين والآخر قائلا : « لاتبكى كفاك بكاء » • فاذا كانت امرأتان تبكيان معا ، فإنه من آداء السلوك أن تكف كبراهما عن البكاء أولا ، ثم تطلب بدورها من زميلتها أن تفعل ذلك • فاذا لم يكن يعرف أيهما أكبر سنا ، فإنهما تستمران فى البكاء فى بعض الأحيان مدة ساعة من الزمن حتى يثير بكاؤهما مشاعر المتفرجين الأصغر سنا • وهما تستمران على هذا النحـــو من البكاء حتى يقدم شخص أكبر منهما سنا ، ويطلب من أحديهما أن تكف عـــن البكـــــاء •

ويبدو أن عادة إذراف الدمع بوصفها علامة على الترحيب ، كانت منتشرة بين القبائل الهندية التى كانت تسكن جنوب أمريكا وشـــمالها على حد سواء • فقد كانت تفرض الآداب الاجتماعية على « التوبيين » الذين يسكنون فى البرازيل بالقرب من « ريو جانيرو » ، أنه عنـــد دخول زائر غريب كوخا يتوقع أن يحتفى به ، فإنه يجلس فى أرجوحة مضيفة ، ويمضى بعض الوقت ساكنا متأملا • ثم تأتى النساء ويجلسن

على الأرض حول الأرجوحة ، ثم يخفين وجوههن بأيديهن وينفجرن فى البكاء ، وهن يرحبن به ويطرينه فى الوقت نفسه • وينتظر من الضيف الغريب بدوره ، وسط هذه المظاهرات الصاخبة ، أن يبكى مشاركة لهن ، فاذا لم يستجب له الدمع الحقيقى ، فإن أقل ما يجب عمله من جانبه ، أن يتنهد من أعماق قلبه ، وأن ينظر قدر الأمكان نظرة ملؤها الاسى • فاذا قام الضيف بهذه الشكليات على الوجه الأكمل وفقا لما تفرضه قواعد آدلب « النوبيين » ، فإن مضيفه الذى ظل حتى هذا الوقت متفرجا غير مبال وغير مكترث بما راه ، يقترب من ضيفه ويبادله الحديث ، ونتبع قبيلة « نينجوا » فيما بينها ، وهى قبيلة هندية تسكن فى « شاكو » ، « شكلا من أشكال الآداب وذلك عندما يتقابلون مع شخص عزيز لديهم طالت غيبته عنهم • فاذا تقابل هندى مع عزيز لديه غاب عنه فترة من الزمن ، فانهما يذرفان قليلا من الدمع قبل أن ينطق أحدهما بكلمة • فاذا تصرفا على غير هذا النحو ، فإن هذا يعد اهانة للضيف أو يعد على الأقل دليلا على أنه غير مرحب به » •

وقد وصف المستكشف الأسبانى « كابيسادى فاكا » فى القرن السادس عشر عادة مشابهة للعادة السابقة كانت تتبعها قبيلتان هنديتان كانتا سكنان جزيرة نائية ، يبدو أنها كانت تقع محل شاطىء تكساس فقال : « هناك فى هذه الجزيرة يسكن شعبان يتحدثان لغات مختلفة ، أحدهما يسمى « الكابوكويون » والآخر « الهاتيون » • ومن عادة هذين الشعبين أنهما اذا تعرف شخصان أحدهما على الآخر ، أو اذا تقابلا مع بعضهما البعض بين الحين والآخر ، فانهما يبكيان ما يقرب من نصف ساعة قبل أن يتحدث أحدهما مع الآخر • ثم يهم الشخص المستقبل ويقدم كل ما يمتلك لزائره الذى يتقبل هذه الأشياء ، ثم يمكث فترة ويأخذها ويرحل • وقد يحدث أن يبتعد أحدهما عن الآخر بمجرد تقديم الهدية دون أن ينطق أحدهما ببنت شفة » • وقد وصف رجل فرنسى كان يدعو « نيكولا بيروه » ، وكان قد عاش بين الهنود عدة سنوات فى نهاية القرن السابع عشر أنه عندما تزور جماعة « اسيو »

قرية من قرى أصدقائهم « الأثاوا » يجهشون فى البكاء وفقا للعادة المتبعة ، أمام كل من يقابلهم من سكان القرية ، تعبيرا عن ابتهاجهم بلقياهم « وقد كان هذا الرجل الفرنسى نفسه هدفا ، أو بالاحرى فريسة لهذه المظاهرات المحزنة • فعندما أرسله حاكم « نيوفرانس » ليتعامل مع القبائل الهندية التى كانت تعيش فيما وراء نهر المسيسبى ، اتخذ لنفسه مسكنا عند شاطىء هذا النهر ، وهناك استقبل رسلا من « الأيويين » وهم جيران « الشيو » وحلفاؤهم ، وكانت قريتهم تقع على مسيرة عدة أيام جهة الغرب • وقد كان هؤلاء يرغبون فى أقامة علاقة طيبة مع المندوب الفرنسى • وقد وصف مؤرخ فرنسى مقابلة هؤلاء الهنود « لبيروه » المسكين ، فقال : أنهم ظلوا يبكون أمامه حتى جرت دموعهم على أجسامهم •• ثم أخذوا يمسحون رأسه ووجهه وملابسه باللعاب والأوساخ الخارجة من أنوفهم وأفواههم حتى تقزز الرجل الفرنسى من هذه القاذورات وكاد يشعر بالمرض • وقد كان هؤلاء الرسل طوال هذا الوقت يولولون ويصرخون • ولم يجد الرجل الفرنسى مفرا من أن يشهر فى وجوههم السكاكين والمخارز • فما أن وقعت أبصارهم عليها حتى كفوا عن هذه الضوضاء • ولما لم يكن مع هذا الوفد مترجم ، فإنهم لم يتمكنوا من الأفصاح عن رغبتهم ، ومن ثم فقد عادوا من حيث أتوا دون أن يحققوا غرضهم • وبعد بضعة أيام جاء الى الرجل أربعة من الهنود كان أحدهم يتكلم بلغة يعرفها الفرنسى • فقال له : إن قريتهم تبعد عن النهر بمقدار سبعة فراسخ ، وأنه جاء يدعوه لزيارتهم ، فقبل الفرنسى الدعوة • وعندما أبصرت النساء الرجال الفرنسيين قادمين ، جرين الى الغابات والجبال وهن يمددن أيديهن نحو الشمس • ولكن عشرين من الزعماء قدموا نحوهم وقدموا « لبيروه » غليون السلام ثم حملوه على جلد بقرة حتى أوصلوه الى كوخ الزعيم • وبعد أن وضعوه داخل الكوخ ، أخذوا يبكون هم وزعيمهم على النحو المألوف لديهم ، كما أخذوا يمسحون

رأسه بلعابهم • وإفرازات أنوفهم • وبعد ذلك جففوا أعينهم وأنوفهم وقدموا له غليون السلام مرة أخرى • ثم يضيف المـــؤرخ الفرنسى قائلا : « اننى لم أر شعبا بين شعوب العالم يبكى بكاء هذا الشعب • فلا يتم مقابلاتهم إلا بالبكاء ، كما لا يتم فراقهم إلا بالبكاء » •